# المقـــدمة

كان عام ٢٠٠٠ هو العيد الأربعمائة لتأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وكان هو أيضا العام الذى جئت فيه للعمل فى مدينة لندن، حيث ظل المقر الرئيسى قائمًا لمدة ٢٧٥ عامًا هى عمر الشركة. ومن حين لآخر تشكل مدينة لندن أحد المحاور الرئيسية للأعمال المالية الدولية، ومع دخول الألفية الجديدة، كان نشاط السوق ما زال باديًا، على الرغم من بلوغ فقاعة «الدوت. كوم» ذروتها فى آخر يوم من عام ١٩٩٩. لقد كنت داخلا، آنذاك، إلى عالم الاستثمار الاجتماعى عندما بدأت هذه الموجة من المضاربات فى التفجر كاشفةً عن سوء تصرف على نطاق لم يُرَ مثله منذ عام ١٩٢٩(*). وبمجرد أن بدأ تدهور قيم الأسهم، استمر فى ذلك الاتجاه حتى هبطت أسعار الأسهم إلى نصف قيمتها فى ثلاث سنوات. وفى كل لحظة كانت ثمة علامات تدهور على كل المستويات التجارية. وعبر العالم كله، تم إجراء الأبحاث لاكتشاف ما إذا كان هذا الانهيار مجرد قلة من «التفاحات المعطبة» فى شركات إنرون، وورلدكوم، وتايكو هى التى يمكن إلقاء اللائمة عليها، أم أن صندوق رأسمالية المؤسسات ذاته هو المعيب؟!

ورغبة فى الارتياح من شاشات حاسبات التجارة ذات الألوان الحمراء التى كانت تعبر عن الانهيار المستمر للسوق، فقد قمت باستطلاع الشوارع التاريخية فى ميدان مايل، عبر البورصة الملكية وبنك إنجلترا، وجنوبا فى حارة المبادلات، حيث كان سماسرة الأوراق المالية يتجمعون أول الأمر فى المقاهى ليتبادلوا الشائعات ويتاجروا فى الأسهم. وفى أحد الأيام، مشيت نحو الشرق أبعد من

(*) وهو العام الذى شهد بداية الكساد الكبير فى القرن الماضى ـ (المترجم).

كل مرة قاصداً شارع ليدنهول بهدف زيارة المقر الرئيس لشركة الهند الشرقية، قبل أن أرجع للعمل بعد ذلك. وعندما وصلت إلى الركن الواقع بين شارعى ليدنهول ولايم ستريت، حيث بقى مقر الهند الشرقية لأكثر من مائتى عام، لم يكن هناك أى شىء ـ لا علامة ولا شارة ولا أى شىء ـ يخبرنا بحقيقة أن هذا المكان كان الموضع الذى كانت تقبع فيه أقوى الشركات المساهمة الكبرى فى العالم فى يوم من الأيام. ولقد حيرنى هذا الغياب، خاصة فى بلد تشربت ثقافة التراث: لماذا تم محو تلك الشركة التاريخية على نحو تام هكذا من فوق وجه لندن؟

هذا الكتاب هو محاولة للإجابة على هذا السؤال، والأهم أنه محاولة لإعادة فحص معنى الإرث الذى تركته الشركة للاقتصاد العالمى فى القرن الحادى والعشرين. وبالتنقيب عن أصول هذه الشركة منذ عصر التنوير، أصبح من الواضح أنها لم تكن مجرد شىء من الماضى، بل مؤسسة ذات ممارسات مألوفة على نحو مدهش؛ فلقد كانت الشركة رائدة نموذج حاملى الأسهم فى الشركات المساهمة، وهى التى بنت أسس إدارة الأعمال الحديثة. وفى مسعى أنانى للكسب الشخصى والجمعى، حققت الشركة ومديروها التنفيذيون فى النهاية السيطرة على السوق فى آسيا، وحكمت عصابات كبرى فى الهند بحثا عن الربح. ولكن الشركة صدمت عصرها أيضا بمدى الفساد الذى بلغه مديروها التنفيذيون، والإفراط فى سوق الأوراق المالية، وقمع البشر. وحسبما أرى، فإن الشركة تتفوق إذا ما قارناها بالوحوش المالية الكبرى فى عصرنا هذا، حيث تفوق شركة وولمارت فى قوتها فى السوق، وتفوق شركة إنرون فى الفساد، وتفوق شركة يونيون كاربيد فى تدمير البشر.

ثمة كتب لا حصر لها تسرد تاريخ شركة الهند الشرقية، إلا أن أيّا منها لا يبحث فى سجلها الاجتماعى كشركة مساهمة كبرى. وهذه فجوة ينشد كتابنا هذا سدها، مستعيدا فى سياق ذلك فحوى الصراعات الشرسة حول المسئولية المشتركة التى أثارتها الشركة فى القرن الثامن عشر. الأهم من هذا هو أن الكتاب ليس ممارسة لتطبيق قيم القرن الحادى والعشرين على عصر سابق عليه، فلقد

بحثت العقليات المستنيرة البارزة فى عصرها ممارسات تلك الشركة ووجدتها غير لائقة. إذ نجد أن آدم سميث، وإدموند بيرك، وكارل ماركس قد اتحدوا جميعا فى نقدهم ـ لأسباب مختلفة ـ لهذه الشركة المسيطرة القاهرة. ومن يمين الطيف السياسى إلى يساره، نجد أن أولئك الذين عاشوا فى عصر الشركة كانوا ينظرون إليها على أنها مؤسسة مُشكلة فى جوهرها؛ فبالنسبة لسميث كانت الشركة واحدة من أكبر أعداء السوق (الاقتصاد) الحر، فى حين كان بيرك يرى أنها تمثل تهديداً ثوريّا للنظام القائم الثابت فى بريطانيا والهند. ولقد أظهرت الشركة أيضا سقطات أخلاقية ذات طبيعة جذرية، إذ قال بيرك للبرلمان: إن «كل روبية من الربح صنعها رجل إنجليزى قد ضاعت للأبد فى الهند»[1]. وبالنسبة لماركس، الذى كان يكتب بعد ٧٠ عامًا من خطاب بيرك أمام البرلمان، فقد كانت الشركة فى أواخر عهدها، حاملة راية «حكم المال ـ moneyocracy» فى بريطانيا، وكانت مخلوقًا أكثر رعبا من أى من الوحوش المقدسة التى تفزعنا فى معبد سالسيت بالقرب من بومباى[2]. إلا أن ما يجعل قصة الشركة ملهمة على هذا النحو هو الطريقة التى كان يقابل بها شخصيات مثل هؤلاء طلبها المتكرر للحصول على سلطة اقتصادية غير محدودة وكفاحهم لجعلها خاضعة للمحاسبة. ونتيجة لذلك فإن الشركة توفر دروسا خالدة فى كيفية مواجهة (وعدم مواجهة) إفراط المؤسسات الكبرى من خلال الإصلاح، والاحتجاج، ورفع الدعاوى القضائية، وإصدار القوانين المنظمة، وفى النهاية من خلال إعادة تصميم المؤسسة.

ولكى أستعيد فحوى الوجود المادى للشركة، قررت أن أجرى البحث خارج الدوائر العلمية والثقافية، ورؤية مناطق الشركة الأساسية فى بريطانيا والهند. وكنت آمل بزيارة مقرها الرئيسى ومخازنها ومنازلها وأرصفتها أن أصل إلى فهم أكثر اكتمالا لشخصية الشركة. يتخذ الكتاب شكلاً روائيّا ولكن يتحرك بين الماضى والحاضر. ولكى أساعد القارئ، قدمت فى أول الكتاب تسلسلاً زمنيا لأهم الأحداث فى تاريخ الشركة. وبعد ذلك يتعمق الفصل الأول فى إرثها المطعون فيه، ويستكشف الطرق المختلفة التى يتذكر الناس بها الشركة فى أوروبا

وآسيا. ويتبع ذلك تحليل فى الفصل الثانى لكيفية عمل الشركة وإدارتها، بالإضافة إلى الصراعات المتأصلة بداخلها والتى أدت فى النهاية إلى انهيارها. ويعالج الفصل الثالث عملها باعتبارها «تاجر توابل» من القرن السابع عشر، إلى جانب مناقشة العواقب الكارثية لطلبها الأول للحصول على السيادة على السوق فى تسعينيات القرن السابع عشر، ونجاحها فى النهاية فى هندسة الاستيلاء على البنغال فى منتصف القرن الثامن عشر. ويناقش الفصل الرابع أسباب ونتائج هذا الحدث الجلل.

ولكن مثل الكثير جدّا من الشركات العظمى فى تسعينيات القرن العشرين تخطت الشركة إمكانياتها، ويوضح الفصل الخامس كيف اتحد الإهمال مع عدم الكفاءة لإحداث انهيار فى سوق المال، ولإحداث واحدة من أسوأ المجاعات التى ضربت الهند. ولقد خشى الكثيرون فى بريطانيا أن تستخدم الشركة ثروتها حديثة العهد فى إنهاء الحريات التى نالتها إنجلترا بشق الأنفس. يعرض الفصل السادس نقد آدم سميث اللاذع للشركة العظمى، ويضعه فى سياق حركة أوسع من الاحتجاج الشعبى، والنشاط البرلمانى ضدها، وثورة آنية صريحة كان هدفها هو إنهاء انتهاكات الشركة فى سبعينيات القرن الثامن عشر. ولكن العدالة لم تكن قد أخذت مجراها بعد، لذا يبحث الفصل السابع كيف حاول إدموند بيرك أن يضع المسئولية فى قلب مرسوم تأسيس الشركة. إلا أن أوامر الإمبراطورية وليست أوامر الأخلاق هى التى كسبت تلك الجولة. يستكشف الفصل الثامن كيف نجحت الدولة البريطانية فى تحويل الشركة لتتخلى ـ على نحو متزايد ـ عن وظائفها التجارية، وتصبح وكيل مصالح التاج البريطانى فى الهند. وقد مثلت الثورة فى الهند عام ١٨٥٧ نهاية وضع الشركة المفارق تاريخيا، ووضعتها فى منطقة حمرة الغروب قبل أن تغرب تماما فى يونية من عام ١٨٧٤. وأخيرا ينظر الفصل الثامن فى كيفية تحقيق مواجهة أكثر أمانة لتراث الشركة، وما هى الدروس التى يمكن استخلاصها من المواجهة مع المؤسسات الكبرى فى العالم المعاصر.

هناك فقدان ذاكرة جزئى غريب يخيم على الدور الذى لعبته شركات كبرى مثل شركة الهند الشرقية فى خلق العالم الحديث. وأملى أن ينجح هذا الكتاب

بطريقة ما فى كشف كيف أثرت شركة واحدة فقط فى تشكيل الماضى العالمى، وكيف يمكننا أن نستخدم هذه المعرفة فى جعل قطاع المؤسسات المساهمة الكبرى فى عصرنا خاضع للمساءلة فى الحاضر.

ولكى أعطى شئون الشركة أهمية أكبر، قمت بتحويل بعض من الإحصاءات المالية الأساسية إلى القيم الحالية. ولهذا الغرض استخدمت الخدمة الفورية على الإنترنت والتى توفرها جمعية «موارد التاريخ الاقتصادى» على شبكة الإنترنت فى موقعها (www.eh.net).

* * *

obeikandl.com

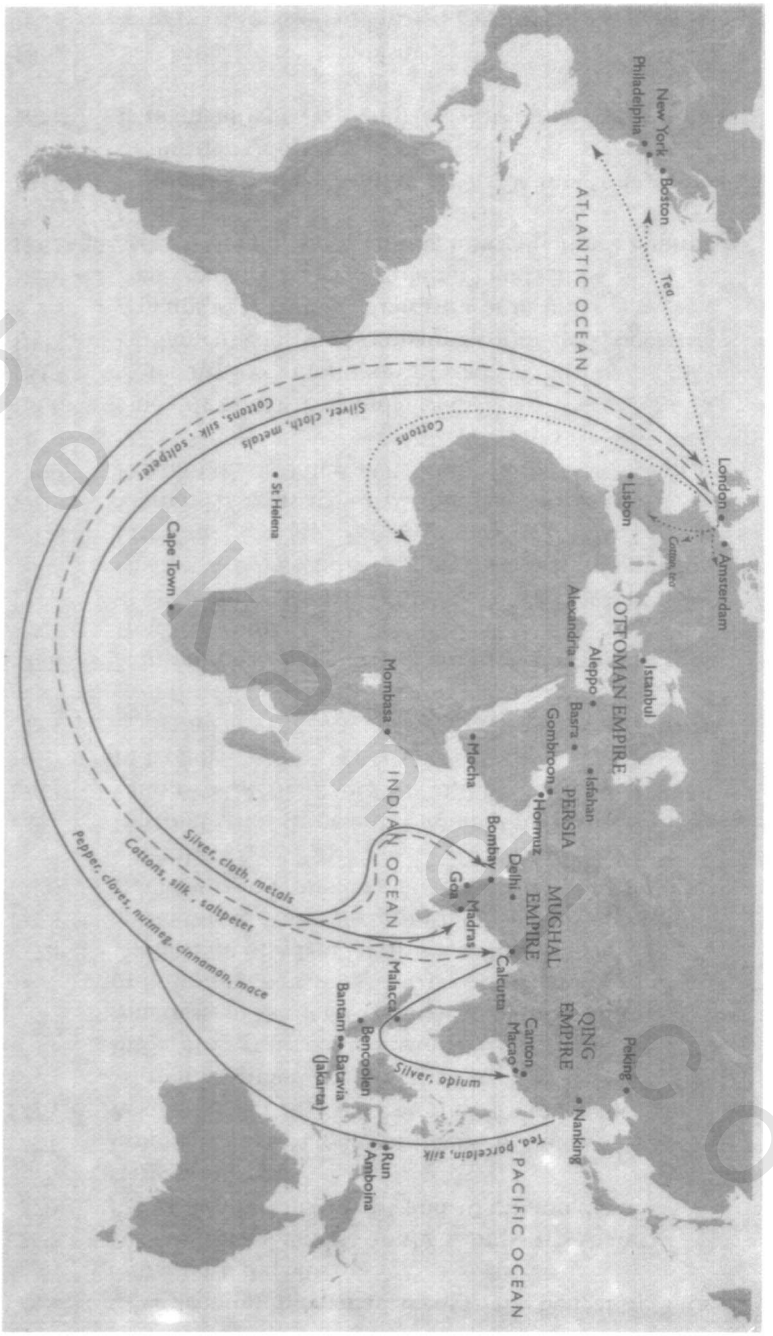


**الخريطة رقم (١): عالم الشركة**

## • التسلسل الزمنى لشركة الهند الشرقية

| | |
|---|---|
| ١٤٩٨ | الأسطول البرتغالى بقيادة فاسكو دى جاما يصل إلى ساحل مالابار |
| ١٥٩٥ | تأسيس الشركة الهولندية لتجارة الشرق عبر المحيط |
| ١٦٠٠ | ٣١ ديسمبر : تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية (E I C) |
| ١٦٠٢ | تكوين شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة (V O C) |
| ١٦١٨ | الشركة الإنجليزية تبرم مع الإمبراطورية المغولية أول اتفاقية تجارية |
| ١٦٢٣ | قوات شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة تعدم تجار شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى أمبوينا (إندونيسيا) |
| ١٦٣٩ | شركة الهند الشرقية الإنجليزية تؤسس حصن سان جورج فى مدينة مدراس |
| ١٦٤٨ | شركة الهند الشرقية الإنجليزية تنقل مقرها الرئيسى إلى دار الهند الشرقية فى شارع ليدنهول بلندن |
| ١٦٥٧ | شركة الهند الشرقية الإنجليزية تصبح مؤسسة مساهمة دائمة |
| ١٦٦٨ | انتقال بومباى إلى ملكية شركة الهند الشرقية على يد الملك شارلز الثانى |
| ١٦٨١ | انتخاب جوزياه تشايلد كأول حاكم (رئيس) لشركة الهند الشرقية الإنجليزية |
| ١٦٨٦-١٦٨٩ | تشايلد يشن حربًا على الإمبراطورية المغولية |
| ١٦٩٠ | الشركة تقيم قاعدة جديدة لها فى البنغال فى كلكُتا |
| ١٦٩٥ | أول تحقيق برلمانى بخصوص فساد الشركة |
| ١٦٩٨ | البرلمان يمنح احتكار التجارة مع آسيا للشركة الجديدة |
| ١٧٠٩ | اكتمال اندماج الشركتين القديمة والجديدة |
| ١٧١٧ | الشركة تحصل على فرمان امتيازات تجارية شاملة فى الهند المغولية |
| ١٧٢١ | تفجر مشكلة الفقاعة الاقتصادية الخاصة بأسعار أسهم شركة ساوث سى (البحر الجنوبى) |
| ١٧٢٩ | إمبراطورية الصين تحرم استيراد الأفيون إلا للأغراض الطبية |
| ١٧٥١ - ١٧٥٢ | روبرت كلايف ينتصر فى حصار مدينة أركوت |

| | |
|---|---|
| ١٧٥٦ | استيلاء نَوَاب (حاكم) البنغال على مدينة كلكُتا ووقوع حادثة «الزنزانة السوداء» |
| ١٧٥٧ | فبراير : استيلاء شركة الهند الشرقية الإنجليزية على مدينة كلكُتا مرة أخرى<br>٢٣ يونية : قوات شركة الهند الشرقية الإنجليزية بقيادة روبرت كلايف تهزم نَوَاب البنغال فى معركة بلاسى |
| ١٧٦٤ | شركة الهند الشرقية الإنجليزية تهزم حلف المغول والبنغال وأوادا فى بوكسار |
| ١٧٦٥ | كلايف يحصل على إدارة مالية البنغال (الديوانى) لصالح شركة الهند الشرقية |
| ١٧٦٩ | ذروة «فقاعة البنغال» فى أسهم الشركة |
| ١٧٧٠ | مجاعة البنغال : موت من مليون إلى ١٠ ملايين نسمة بسبب الجوع<br>الشركة تلجأ إلى الحكومة للمساعدة المالية |
| ١٧٧٢ | تمرير القانون المنظم لإصلاح إدارة شركة الهند الشرقية الإنجليزية، ووارين |
| ١٧٧٣ | هاستينجس يصبح أول حاكم عام للهند. تمرير قانون الشاى لتشجيع بيع شاى شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى أمريكا؛ وفى ديسمبر يقوم الوطنيون الأمريكيون بإغراق شاى الشركة فى مرفأ بوسطن |
| ١٧٧٦ | آدم سميث ينشر كتابه ـ *«ثروة الأمم»* |
| ١٧٧٨ | وضع لوحة سپريديون روما المسماة القربان «التقديم» فى دار شركة الهند الشرقية. |
| ١٧٨٠ | مبارزة بين فيليب فرانسيس، ووارين هاستينجس فى كلكُتا |
| ١٧٨١ | هاستينجس يرسل شحنات أفيون إلى الصين |
| ١٧٨٣ | فشل تشارلز جيمس فوكس، وإدموند بيرك فى تمرير مشروع قانون الهند الأول |
| ١٧٨٤ | تمرير قانون الهند الذى قدمه ويليام بيت، والذى يزيد من سلطات الدولة على شركة الهند الشرقية الإنجليزية |
| ١٧٨٨ | بداية محاكمة وارين هاستينجس فى مجلس اللوردات |
| ١٧٩٣ | اتفاقية «التسوية الدائمة» لمالية البنغال وصدور مرسوم ترخيص جديد ينهى احتكار الشركة للتجارة مع آسيا لأول مرة |
| ١٧٩٥ | تبرئة وارين هاستينجس |

| | |
|---|---|
| ١٧٩٩ | تصفية شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة، وغزو شركة الهند الشرقية الإنجليزية لميسور |
| ١٨٠٦ | افتتاح رصيف شركة الهند الشرقية الإنجليزية الجديد |
| ١٨١٣ | الشركة تفقد احتكار التجارة مع الهند |
| ١٨٣٣ | البرلمان ينهى العمليات التجارية للشركة؛ وتبقى الشركة فى الهند كإدارة إقليمية بها |
| ١٨٥٦-١٨٦٠ | حرب الأفيون الثانية والتى انتهت بتشريع يسمح بتعاطى الأفيون فى الصين |
| ١٨٥٧ | اندلاع التمرد الهندى، أو حرب الاستقلال الأولى شمال الهند |
| ١٨٥٨ | البرلمان البريطانى يحل الحكم البريطانى المباشر للهند محل الشركة |
| ١٨٦١ | هدم دار شركة الهند الشرقية الإنجليزية |
| ١٨٧٤ | أول يونية: تصفية شركة الهند الشرقية الإنجليزية |

obeikandl.com